الفصل الرابع
الوصف

عاش العماد فى المدن الكبيرة مثل : أصبهان ، وبغداد ، والبصرة ، وواسط ، ودمشق ، والقاهرة . واستأنس بمعالمها الحضارية ، وتنقل بين أحضان الطبيعة الجميلة الخلابة ، واستمتع بمباهجها ومفاتنها ، وصور ما شاهده ، ووصف ما أحس به .

وكانت دمشق من المدن التي حظيت باهتمامه ، وأصفاها الكثير من شعره لأنه أحبها ، وقضى فيها شطرًا من حياته في ظل الدولتين الزنكية والأيوبية ، فهي في نظره أجمل المدن وأبهاها[1] :

ليسَ في الدُّنيا جميعًا ... بلدةٌ مثلَ دمشقِ

ويسلينـي عنها ... في سبيلِ اللّهِ عِشْقي

والتُّقى الأصلُ ومَنْ يتـ ... ـرُكُها يَشْقَى ويُشْقى

وله قصيدة طويلة ، وصف فيها جمالها وطيب ثمرها ، وجداولها ورقراق مياهها ، ورُباها وبديع أزهارها ، وساحاتها وحسن تنسيقها ، وميادينها ورعة ترتيبها ، ومبانيها وجمال هندستها .فيقول[2] :

دمشقُ عندي لا تُحْصَى فَضَائِلُها ... عَدّاً وَحَصْراً ويحصى رَمْلُ يَبْرِين[3]

وَمَا أرَى بَلْدَةً أُخرى تُمَاثِلُها ... في الحسْنِ مِن مصرَحتى مُنْتَهى الصِّينِ

في كلِّ قُطرٍ بها وَكْرٌ لمنْكَسرٍ ... وَمَسْكَنٌ غيرُ مملولٍ لِمسْكِينِ

(1) الديوان ص 314 .
(2) الديوان ص 432 .
(3) يَبْرين : من أصقاع البحرين بها منبران وهناك الرمل الموصوف بالكثرة ، معجم البلدان 427/5 .

obeikan.com

وإنَّ مَـنْ بَـاعَ كـلَّ العُمْـرِ مُقْتَنِعَـاً ... بسـاعةٍ في دَرَاهـا غـيرُ مَغْبُـونِ[1]

لَمَّـا عَلَّـتْ همَّـتي صَـيَّرْتُها وَطَـني ... ولـيسَ يقنـعُ غـيرُ الـدُّونِ بالـدُّونِ

يُصـيبكَ مَيْطورُهـا طـوراً وَنَيْرَبُهـا ... طوراً وَتُوَليكَ إحساناً بتَـحْسِينِ[2]

تَـرَى جَوَاسِـقَهَا في الجـوِ شَـاهقةً ... كـأنهنَّ قصـورٌ للسّـلاطِينِ

دارُ النَّعـيمِ ومـنْ أدنـى محاسِنِـها ... تِمَـارُ تَمـوُّزَ في أيـامِ كـانونِ

نَعِيمُهـا غـيرُ ممنـوعٍ لساكنـها ... كالخُلْـدِ والمـنُّ فيهـا غـيرُ ممنـونِ

كأنمـا هـي للأبـرَارِ قَـدْ فتـحتْ ... مـن الفَـرَادِيسِ أبـوابَ البَسَاتِينِ[3]

أرْهَارُهَـا أبـداً في الـرَّوْضِ مُوَنِقـةٌ ... فَحُسْـنُ نَيْسَـانَ مَوْصُـولٌ بتِشـرِينِ

وأيُّ عـينٍ إليهـا غـيرُ ناظـرةٍ ... وأيّ قلـبٍ عليهـا غـيرُ مَفْتُـونِ

ويبـدو أن شـاعرنا شـاعر موضـوعي ، إذْ كـان يتحسس موصـوفاته ويتعـاطف معها وينعتها ، فقد رأى في دمشق المدينة العريقة ما لم يراه في غيرها ، ووجدها أهلا لئن توصف ويتحدث عنها حديث الشوق والحب .

ومما استوقفه في دمشق وفرة ثمارها وتنوعها وتميزها على الأمصار بما حباها الله من هذا الخير العظيم والكثير الذي شد بصره ، وقيد خاطره ، مثل المشمش الذي خصه بقصيدة أجاد فيها ، كما في قوله[4] :

هَلُمـوا نُسـابقْ نحـوَ مِشْـمسٍ جلِّـق ... وَثَـمَّ لـما نهـوَى على الأكْـلِ نَلْتَقـي[5]

وَمَـنْ يَتَعَشّـقْ دَا الفَضَـائِلِ يَشْـتَقِ؟ ... نَصْـفَّرُ شَـوْقاً لانتظارِقـُدُومَنا

وَمَـا رَمَقْـتُ للشـوْقِ رُمْـدُ عيونـهِ ... فـإنْ تَتَرَفَّـقْ منـهُ نَنْظُـرْ وَنَرْفَـق

---

(1) مغبون : الغبن : ضعف الرأي والعقل .
(2) ميطور : من قرى دمشق . معجم البلدان : 5 / 244 .
(3) الفراديس : أحد أبواب دمشق ، والفراديس بلغة الروم البساتين والكروم ، وموضع بقرب دمشق ، ج فردوس وهو البستان ، معجم البلدان (4 / 242) .
(4) الديوان ص 316 .
(5) جلق : موضع بالشام .

ثم بعد ذلك يتمادى في وصف المشمش كأنه حبيب يعشق :

وَجَنَّاتُهـــا مُحَمَـــرَةٌ وَجَنَاتُهـــا فَمَـنْ يَرَهـا مِثْلـي يُحِـبُّ وَيَعْشَـقِ

بَـدَتْ بـينَ أورَاقِ العُصـونِ كأنهـا كُـرَاتُ نُضَـارٍ في لجـينٍ مُطـرَّقِ

تُسَـــاقِطُها أشْـــجَارُها فكأنَّهـــا دَنَـانيرٌ في أيـدي الصَّـيارفِ تَرْتَقـي

ومشـمشُ بُسْـتَانِ الزَّكـي بِشَـهْدِهِ شَـهَادَتُهُ تَقْضِـي فَـزكٍّ وَصَـدِّقِ[1]

ويصور في قصيدة أخرى هذه الثمرة الشهية تصويرًا بديعًا فيشبهها بحلي الذهب المعلق بأعناق العرائس يزيدهن حسنًا وجمالا ، ويضفي عليهن نورًا وبهاءً [2]:

حُلِّـيٌّ تَـبرٍ علـى عَـرَائسَ أغـــ ـصانٍ تَشَكَتْ مِـنْ قَبلـها عَطَـلا

حمـرٌ حسـانُ الوجـوهِ قَـدْ لبسـتْ مِـنْ حُضْـرِ أوراقهـا لهـا حُلِّـلا

عَـرَائسٌ مِـنْ حُـدورِها بَـرَزَتْ تحسـبُ أشجَارَهـا لهـا كِلَـلا

حَـــلاوةٌ لا يَمَـــلُّ آكلُهـــا إذا الحـــلاواتُ أحـــدَثَتْ مَلَـــلا

ووصف العماد إلى جانب الثمار الطبيعية المآكل المصنوعة ، مثل القطائف ، وهي حلواء تؤدم بدهن اللوز ، وقد خصها بقصيدة مطلعها[3] :

مَـــا رَاقـــداتٌ في صُـــحُونِ مُسْـــتوطناتٌ في سُـــكونِ

يجلـــينَ أمثـــالَ العَـــرَا ئـــسِ بـــينَ أبكـــارٍ وَعُـــونِ

أوكالعَقَائِـــلِ في الخـــدو رِقَـــدْ اعْـــتَقَلنَ عَلـــى ديـــونِ

---

(1) الديوان ص 317 .
(2) الديوان ص330– 331 .
(3) الديوان ص 418 – 419 .

هُـــنَّ اللّذِيـــذاتُ اللّـــوا ئـــدُ بالسّـــهولِ مـــن الحـــزُونِ[1]

وكشف عن شكلها الجميل ، ولونها الجذاب ، ومنظرها اللطيف ، وصنعها البديع ، والأواني البراقة التي احتوتها ، يقول[2] :

المستطابـــــاتُ الظّهـــــورِ المستلـــــذاتُ البطـــــونِ
نُضِّـــدنَ بالتّرصـــيعِ في الـــ ـجامـــاتِ كالـــدُّرِ المصـــونِ
المستقيمـــــاتُ الصُّفـــــوفِ وَقَفـــنَ كالخيـــلِ الصَّـــفونِ
وقَـــدْ اشْـتَمَلنَ مِـــن اللّطـــا ئـــفِ والصِّـــفاتِ علـــى فنـــونِ

ومن اللوحات الطريفة التي نلقاها عند الشاعر وصفه للحشرات مثل : البق والبرغوث وأثرها على جسده ، قال حينما بات ليلة في موضع بالقرب من مدينة واسط[3] :

شّـــربتْ بقُّهـــا دَمـــي فَتَعَنّـــتْ وَبَرَاغيثُـــها تواجَـــدْنَ رَقْصَـــا
قَـــدْ تَعَرَّيْـــتُ مِـــنْ ثيـــابي لِكَرْبـــي غـــيرَ أنّـــي لبســـتُ منهـــنَّ قُمْصَـــا
كُلّمـــا ارْدَدْتُ مـــنعهنَّ بحـــرصٍ عَنْ فراشي شَرَهُنَّ فارْدَدْنَ حرصَـــا[4]
مِـــنْ بَرَاغيـــثَ خِلْتُهـــا طافـــراتٍ طائـــراتٍ جناحُـــها قَـــدْ حَصَـــا[5]
عَرَضَـــتْ جَيشَـــها الفريقـــانِ حَـــوْلي وهـــي أوفَـــى مِـــنْ أنْ تُعـــدَّ وتُحصَـــى

(1) الحزون : الحزن : ما غلظ من الأرض والجمع حزون .
(2) الديوان ص 419 .
(3) الديوان ص 248-249 .
(4) شرهن : اشتد حرصهن واشتهاؤهن .
(5) حص الطائر : وحص جناحه : قل ريشه وتناثر .

obeikan.com

وهناك لوحة أخرى يصور فيها الحمى وقدومها عليه في النهار، وما واجه في هذا القدوم غير المرغوب من الأذى الذي لم يطق احتماله وتعوده على المكاره والخطوب[1] :

وزائـــرةٍ ولـــيسَ بهـــا حَيـــاءٌ ... وَلـــيسَ تَـــزُورُ إلاّ في النَّـــهارِ
ولـو رَهِبَـتْ لـدَى الإقـدَامِ جَـوْرِي ... لمـا رَغَبَـتْ حِهَـارَاً في حِـوَارِي
أتـتْ والقلـبُ في وَهَـجٍ اشْـتِياقٍ ... لتظهـرَ مَـا أُوَارِي مَـنْ أوَارِي
وَلـوْ عَرَفـتْ لظَـى سـطواتِ عَزْمـي ... لكانـتْ مِـنْ سُـطاي عَلـى حَـذَارِ
تقـيمُ فحـينَ تُبْصـرُ مَـنْ أتـاني ... ثبـاتَ الطّـوْدِ تُسـرعُ في الفـرارِ
تُفـارقني علـى غـيرِ اغْتِسـالٍ ... فَلـمْ أحـلُلْ لَزَوْرَتـها إزَارِي

والعماد في هذه الأبيات محتذ نهج المتنبي الذي ابتلى بالحمى فنعتها من خلال صراعه مع واقعه المر وعدم استكانته له، فالمتنبي هو السابق المجود، والعماد هو اللاحق المقلد :

وزائـــرتي كـــأنَّ بهـــا حيـــاءً ... فلـــيسَ تَـــزُورُ إلاَّ في الظَّـــلامِ
بَـدَلتْ لهـا المطـارفُ والتّكايَـا ... فَعَافتَهـا وَبَائـتْ في عِظَـامي
يضـيقُ الجلـدُ عَـنْ نَفْسـي وَعَتهَـا ... فتوسعـهُ بأنـواعِ السِّقَـامِ[2]

أثارت الحرب الدائرة بين المسلمين والإفرنج قريحة العماد، فوقف عليها ووصفها وتحدث عنها من خلال مدحه لنور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي وسواهما من القواد الذين خاضوا غمار المعارك وأظهروا بسالة وشجاعة. فها هو

(1) الديوان ص 196 .
(2) ديوان المتنبي (2 : 40) بشرح عبد الرحمن البرقوقي، ط : الرحمانية، مصر، 1930م .

يعلو صوته وتتسع دائرة وصف الحرب عندما يقف ، أما نور الدين محمود ، فيغور في الأعماق ، ويتحسس الأشخاص والأشياء بروح من الغيرة والافتعال ، لأنه إزاء رجل أحبه وعشق المهمة التي تزر نفسه لها ، فما هي بالحرب ، إنما الجهاد الذي هو أحلى أمانيه ، ولهذا ترادفت فتوحه ، وكثرت وقائعه في الإفرنج ، وسارت في الآفاق والبلدان [1]:

أحلى أمَانِيكَ الجهادُ وإنَّهُ ... لكَ مُؤذنٌ أبداً بكلِّ أمَانِ

كَمْ بكرِ فتحٍ وَلّدتهُ ظُبَاكَ مِنْ ... حربِ لقمعِ المشركينَ عَوَانِ

كَمْ وقعةٍ لكَ في الفرنجِ حَدِيثُهَا ... قَدْ سَارَ في الآفاقِ والبلدانِ

كَمْ مُصْعَبٍ عَسرِ المقَادَةِ قُدْتهُ ... نحوَ الرَّدَى بخَزَائمِ الخُلانِ[2]

قَمّصْتَ قَوْمَصَهُمْ رِدَاءً مِنْ رَدَى ... وَقَرَنْتَ رأسَ برِنْسهمْ بِسِنانِ[3]

وَمَلَكْتَ رِقّ مُلوكِهِمْ وَتَرَكتهُمْ ... بالذّلّ في الأقيادِ والأسْجَانِ

وَجَعَلْتَ في أعناقِهِمْ أغلالهمْ ... وَسَحَبْتَهُمْ هُوْناً عَلى الأذْقَانِ

إذْ في السّوابغِ تُحَطمُ السّمرُ القنا ... وَالبِيضُ تُخَضَبُ بالنّجيعِ القاني[4]

وعلى غِنَاءِ المشْرَفيةِ في الطّلى ... والهامِ رَقْصُ عَوَامِلِ المرّانِ[5]

وكأنّ بينَ النّقعِ لمعُ حَدِيدِها ... نارٌ تألقُ مِنْ خِلالِ دُخَانِ

في مأزقٍ وردُ الوَرِيدِ مُكفّلٌ ... فيهِ بَريّ الصّارمِ الظّمآنِ

---

(1) الديوان ص 411-412 .
(2) المصعب : الفحل الذي لم يمسه حبل ولم يركب.
(3) القومص : الأمير ، البرنس : لقب يلقب به كل عضو من الأسر المالكة .
(4) السوابغ : الدروع الواسعة .
(5) المُران : الرماح الصلبة اللدنة واحدتها مرانة . وقال أبو عبيد : والمران بنات الرماح .

غَطى العجاجُ بهِ نجومَ سمائِهِ لتنوبَ عنها أنجُمُ الخرْصَانِ

يمتاحُ مِنْ قَلبِ القلوبِ دِمَاءَهَا بالسّمرِ مَنْحَ الماءِ بالأشطانِ

أو مَا كفَاهُمْ ذَاكَ حَتى عَاوَدُوا طرُقَ الضّلالِ وَمَرْكِبَ الطغْيَانِ

ويستمر في الحديث مبينًا خيبة الإفرنج وحيرتهم وضلالهم حتى هزموا شر هزيمة :

يا حَيْبَةَ الإفرنجِ حينَ تَجَمَّعُوا في حَيْرَةٍ وأتَوْا إلى حَوْرَانِ

جاؤوا وظنهُمُ يُعَجّلُ رِبْحَهُمْ فأعَدَتهمْ بالخِزْيِ والخُسْرَانِ

ويصف جيش نور الدين بالصحابة يوم بدر[1] :

هُمْ كالصّحَابةِ يومَ بَدْرٍ حَاوَلوا نَصْرَ النبيِّ وتُبْتُ عَنْ حَسّانِ

الحائزونَ من السِّباقِ خِصَالهُ في مُلتَقَى حَرْبٍ وفي مَيْدَانِ

عادوا الإفرنج بهزيمة ساحقة ، بعد خراب بيوتهم وحزن ويأس من كل شيء ، والمشركون يقبلوا التعازي ، والمسلمون فرحين بالنصر والتهاني[2] :

عَادُوا وَحِينَ رَأوُا حَرَابَ بيوتهُمْ يئِسُوا مِن الأوْطارِ والأوْطانِ

باؤوا بأحزانٍ وَحَاضُوا هَوْلَهَا مما لقوا بمخَاضةِ الأحْزَانِ[3]

وَقَدْ اسْتَفَادَ المشركونَ تَعَازِياً والمسلمونَ تهادِيَاً بِتّهَانِ

أصْبَحَتَ للإسْلامِ رُكناً ثابتاً والكفرُ منكَ مُضَعْضَعُ الأرْكانِ

(1) الديوان ص 415 .
(2) الديوان ص 416 .
(3) مخاضة الأحزان : موقع حصين يقع بين طبرية وصفد من ناحية ودمشق من ناحية أخرى.

ويصف شاعرنا جيش ناصر الدين محمد بن شيركوه (صاحب حمص) وقد أعد كتيبة راياتهم منشورة ، وبيادقها خضراء ، وعددها عديد ، وعدتها من السيوف والرماح كثيرة[1] :

وكتيبـــةٍ مثـــل الرِّيـــاضِ كأنّمـــا ... رايـاتُهـــا منشـــورةٌ أرْهَـــارُ

وكأنّمـــا حُضْـــرُ البَيـــارقِ للقنـــا ... وُرْقٌ وَهَامَـــاتُ العُـــدَاةِ ثمـــارُ

وكمـائمُ الأغْمَـادِ عَـنْ رَهـرِ الظُّبـى ... فَتَقَـــتْ فَكـــلُّ صَـــقِيلةٍ نُـــوّارُ

وعلـى شَـعَاعِ الشّـمْسِ لمـعُ حَدِيـدها ... يبـدو كمـا يَعْلـو اللّجـينُ نُضَـارُ

فقد أطلق شاعرنا عنان خياله ليخرج تشبيهات بعيدة عن ميدان القتال ، وصرير الحديد ، وصهيل الخيل ، وطراد الفرسان ، وطعان الكماة ، ويبدو أن شغف العماد بالرياض والمروج ووصف الطبيعة ينتج عن صورة حربية ، يعرضها للمشاهدين ففي قصيدة يصف فيها جيش صلاح الدين ويهنئه على فتح عسكر حلب والموصل بتل السلطان[2] ، 571هـ[3] :

مُحَمَّـــرٌ حَـــدّ صَـــقِيلةٍ نُفَاحَكُـــمُ ... وأسـيلُ حَـدّ عَقِيلـةٍ نُفّاحُـهُ[4]

للّهِ جـــيشٌ بالمـــروجِ عَرَضْـــتَهُ ... أُسْـدُ العَـرِينِ رجَالُـهُ ورماحُـهُ

وَمِـن الحديـدِ سَـوَابغاً أبْدَانُـهُ ... ومِـن المضَـاءِ عَزَائمـاً أرواحُـهُ

ولـه فَـوَارِسٌ بـالنّفوسِ سمَاحُهَـا ... أتُعَـادُ بـالعِرْضِ المصُونِ شُحَاحُهُ؟

روضٌ مِـن الصّـفْرِ البنـودُ وحُمْرِهَـا ... والبـيضِ يُزْهِـى وَرْدُهُ وَأقَاحُـهُ

---

(1) الديوان ص 164 .
(2) تل السلطان : موضع قريب من حلب (معجم البلدان 2 : 42) .
(3) الديوان ص 111 .
(4) صقيلة : يريد السيف والرمح ، عقيلة : الكريمة المخدرة من النساء .

ويصف السلطان صلاح الدين بأنه ملك يحب الصفح عن أعدائه[1] :

مَلـكٌ يُحـبُّ الصّـفحَ عَـنْ أعْدَائِـهِ فلـذاكَ تَصَـفَحُ عَـنْ عِـدَاهُ صِـفَاحُهُ

لـكَ بيـتٌ مجـدٍ لـيسَ يُـدْرَكُ حَـدّهُ يعيَـا بِـدَرعِ عُرُوضِـهِ مَسّـاحُهُ

ويصفهم بأنهم ملوك الزمان وكأنهم هم كرامه وعظامه وفصاحه[2]:

أنـتُمْ مُلـوكُ زَمَانِنَـا وَسَـرَاتُهُ وَكِرَامُـهُ وَعِظَامُـهُ وَفصاحُـهُ

عُظمَـاؤهُ كَـبراؤهُ فُضْـلاؤهُ وَرِزَانُـهُ وَرِصَانُـهُ وَصِبَاحُـهُ

ويصفهم بأنهم أقمار وشموس وبحاره وجبال راسخات ، وأنهم رجال الدهر وفرسانه[3] :

أقمـارُهُ وشموسُـهُ ونجومُـهُ وبحـارُهُ وجبـالُهُ وبطاحُـهُ

أنـتم رجـال الـدهر بـل فرسـانهُ ولـذي الحِلُـومِ الطائِشاتِ رِجَاحُـهُ[4]

فُتّاكُـهُ نُسّاكـهُ ضُـرّارُهُ نُفّاعُـهُ مَنّاعُـهُ مُنّاحُـهُ

ويتصف بصفة العفو[5] :

أسْـجَحْتَ حـينَ مَلَكـتَ عَفْـوَاً عَـنْهُمُ إنّ الكـريمَ مُؤمّـلٌ إسْجَاحُـهُ

ومثل هذه الأوصاف كثيرة في شعر العماد ، ويبدو أن صور الطبيعة الخلابة والجميلة وما تحتويه من جبال ونجوم وأقمار وشموس وبحار ، قد طغت عليه ولم تغب عن مخيلته حتى في لوحاته الحربية .

---

(1) الديوان ص 112، 113 .
(2) الديوان ص113 .
(3) المرجع نفسه .
(4) الحلوم : الحكم : الأناة والعقل والجمع أحلام وحُلوم . (لسان العرب) .
(5) الديوان ص 114 ، الإسجاح : حُسن العفو (لسان العرب) مادة س ج ح .